مَبدأُ الاسترقاق

كان الناسُ أحرارًا مكرَّمين منذُ خلقَهُم اللهُ، وأهبَطَهُم إلى الأرض، واستخلَفَهُم فيها، وخلق لهم ما فيها جميعًا، وسخَّرها لهم يمشون في مناكبها ويأكلون من رِزْقه، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وحين وقع الانحرافُ عن منهجِ الله ورسالته وظهَر الكفرُ أرسل خالقُهم جلّ وعلا إليهم رسُلًا منهم، وأنزل معهم كتُبًا؛ ليقوم الناسُ بالقِسْط، ويتحقَّقَ فيهم العدْلُ، وتُوفَّرَ الكرامة، ولئلا يُسلَبُوا هذه النِّعمَ ويُستعبَدُوا ويُتسلَّطَ عليهم، فعاش حُرًّا كريمًا كلُّ مَن لم يَرْضَ بسلْبِ حريته وكرامته، وبذَلَ ثمنَ الحرِّيةِ والكرامة بالوُقوفِ في صفِّ أتباعِ الرُّسل المجاهدين الساعِينَ لحفْظِ كرامةِ الخلْقِ وحرِّيتِهم، وقاوَم معهم طُغاةَ الأرض الساعِين لاستعبادِ الناس وسَلْبِ كرامتِهم، حتى قال أحدُ أتباعِ الأنبياءِ(*) كلمتَهُ الشهيرةَ التي عبَّرَ فيها عن كُنْهِ الرِّسالات: (نحنُ قومٌ ابتَعثَنا اللهُ لنُخرِجَ مَن شاءَ مِن عبادةِ العباد إلى عبادةِ ربِّ العباد، ومِن ضِيق الدنيا إلى سَعة الدنيا والآخرة، ومِن جَوْرِ الأديان إلى عَدْلِ الإسلام)، وبالتزامِ أتباعِ الرُّسلِ هذا المفهومَ لرسالات الله جاهَدُوا لاسترجاعِ الحقِّ المسلوبِ إلى عبادِ الله، وتحقيقِ الحرية لهم بتعبيدهم لخالقِهم وحدَهُ جلّ وعلا، وفَتْحِ الباب أمامَ كلِّ إنسانٍ لنَيْلِ حقِّه في الحرية والكرامة؛ فكانت تلك العبارةُ العظيمةُ من أحَدِ قادةِ محرِّري البشَر(**): (متى استعبَدتُم الناسَ وقد وَلَدتْهُم أمَّهاتُهم أحرارًا)، ويُشيرُ الشيخُ صالح رحمه الله في مقال: «قضية أن تكون المرأة أجيرة» إلى نوعٍ من الرِّق قد يخفى على أكثر الناس، وذلك عند كلامِه على ما نشأَتْ عليه الحضاراتُ من تسخيرِ الناس لأغراضِ أساطينِها، بقوله: (والشعوبُ البُدائية - كما يُعبِّرون -

(*) هو ربعي بن عامر رضي الله عنه الذي قال هذه الكلمة مخاطبًا رستم قائد جيش الفرس.

(**) هذه العبارة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هي وحْدَها التي ينـدُر فيها الـرِّقُّ والعملُ المأجـور، أما الحضاراتُ فعلى العكسِ من ذلك، قـامت الحضـارةُ الرومانية على الرقّ، وقامت حضـارةُ الإقطاع الأوروبيّ على شِـبْه الرقّ، وقامتِ الحضـارةُ الأوروبية بَعْد الثورة الصناعية على العمَلِ المأجور)، ثم أشـارَ إلى مَلمَـحِ الرقّ في العمل المأجور بقوله: (في العمَـلِ المأجُورِ يَبيعُ الأجيرُ وقتَهُ وجُهـدَهُ لِقاءَ ثمنٍ مادِّيّ، أي: يَبيعُ جُزءًا من نفسـه، هذا يَعني أنّ العمَلَ المأجُورَ نوعٌ من الرِّقّ، لا أنسَـى مرّةً موظَّفًا في إحدَى الشَّـرِكات كان يُريد أن يُعبِّر لي عن ضُغُوطِ عملِهِ، فقال بتأثُّرٍ ظاهر: أنا قِنّ!).

هـذا، وقد ابتُلي البشَـرُ في العصـر الحديث بأَصـارٍ وأغلال كبَّلَتهـم بها الأنظمةُ والقوانين الحديثة التي تصـدُر في كلّ شيء بلا إذنٍ من الناس ولا استشارتِهم فضلًا على مُوافقتهم، وظلّت هذه الآصـارُ والأغلال والقوانين طَوالَ القرون الماضية تسعى لإحكام سـيطرتِها على العالم، ومن سَـعة إدراك الشـيخ – رحمه الله – لتمكُّن هذه القوانين والتصـوُّرات أنْ وصَفَها وصفًا دقيقًا بقوله: «غطّتْ ما تُغطِّيه الشمسُ بل أبلغَ من ذلك دَخلت الأكواخَ في الغابات والمغاراتِ في الجبال»، وقال: (إنّ التأثيرَ الطاغيَ للحضـارة الغربية – فلسفتِها وقِيمِها وأنماطِ عيشها – على العالم تأثيرٌ شاملٌ وعميق، شاملٌ من حيثُ تناولُه مختلِفَ مجالات الحياة، وعميقٌ من حيثُ وصولُه إلى أعماق النفس البشـرية، بحيـثُ يُزاحم أو يَطردُ جزئيًّا أو كليًّا القِيَـمَ الثقافيةَ الأخرى ليحُلَّ محلَّها)[٨].

وأصـبح الناس في رِقٍّ عامّ، لا يُفلِتُ منه أحـد، ولا يملك الانعتاقَ منه رئيسٌ ولا مرؤوس، ولم يمرَّ على الناس منذُ عهدِ آدمَ عليه السـلام مثلُ هذا الرقّ الذي غَشـي كلَّ الناس إلا مَن رحم الله، وتجذَّر في الناس حتى صـيَّرَهم أرقامًا لا غيرُ، تَجري على أكثرِهم أحكامُ الحَجْرِ بضـغطة زِرٍّ من موظَّفٍ بلا ترافُع لقضـاء، فلا يَتصرَّفُ في مالِه، وليس له الحقُّ أن يَضعَه في بيته، وإنما هو محفوظٌ في البنوك، ولا يُعطَى منه إلا بالقدر الذي يُؤذَن فيه، وهو معرَّضٌ لأن يُنزَع منه أو يُمنَعه في أيِّ وقت، والهبةُ والعطيةُ والزكاة

والصدقةُ لا يَحِقُّ له أن يفعلَ من ذلك شيئًا إلا فيما أُذِن فيه، وليس له الحقُّ في أن يُسافر من بلدٍ إلى آخَر، ولا أن يُحوِّل مالَهُ إلى بلدٍ آخَر إلا بإذن، بل لا يتأتى له تصرُّفٌ إلا بالرقْم لا بما تَقتضيه كرامةُ الإنسان، وهذا خسْفٌ بكرامة الإنسان وحُريته لا نظيرَ له فيما مَضى من تاريخ البشر.

وإنّ الناس قد غيَّبهم ما صاحَبَ هذا الرقَّ من تعليم مُنهَج وإعلام مُسيطِر لهَدْم القِيم وغرْسِ ثقافة الفساد والانحلال، والذُلِّ والخنوع؛ حتى لا يَعُوا حقيقةَ الرقِّ الذي يُعانون آصارَهُ وأغلالَهُ في سائرِ شؤون حياتهم.

قال المفكِّرُ النمسويُّ الأصل (ليوبولد فايس)(*) - الذي كتبَ بعد سبع سنوات من إسلامِهِ وتَسَمِّيه بمحمد أسد رحمه الله - في كلماتٍ مختصرة بـ«ضياعٌ مأساويّ غالب على العالم الإسلامي»: (في هذا الوقتِ هَجر العالم الإسلاميُّ تقاليدَهُ الخاصة، وارتدَّ إلى العَناء الرُّوحيّ، والفقْرِ العقليّ، العالَم المسلِمُ لم يَبقَ له من القوةِ ما يجعلُه قادرًا على المقاومة، وبقايا وُجودِه الثقافية تُسوَّى بها الأرضُ اليومَ تحت ضغط الأفكارِ والعادات الغربية، هُنا إشارة محسوسةٌ إلى الخضوع، والخضوعُ في حياة الأمم معناه الموتُ تقريبًا حقيقتُه، بوصفِه عاملًا ثقافيًّا مستقِلًّا، وأنا لا أتكلّمُ عن الجانب السياسيّ من انحطاط المسلمين؛ فإنّ أهمَّ مَظهرٍ لحياتهم الحاضرةِ في المجالات الفكرية والاجتماعية إلى حدٍّ بعيد: اضطرابُ الإيمان، ونقصُ الإبداع، وانحِلالُ الكِيان الاجتماعيّ.

إنّ حالةَ الفوضى الثقافية والاجتماعية التي يمرُّ بها عالَم المسلمين اليوم تُظهِرُ بوضوح أنّ القوى المتوازنةَ التي كانت مَرةً سببًا في عظمة الإسلام قد استُهلِكت اليومَ تقريبًا، ونحن المسلمين اليوم (يعني في العشرينيات من القرن الماضي) مُنجرِفون مع التيار، ولا أحدَ يدرِي إلى أيّةِ غايةٍ ثقافية، لم يَبقَ لنا أيّةُ شجاعةٍ فكرية، ولا رغبةٌ في

(*) هو محمد أسد (١٩٠٠-١٩٩٢م) ولد في الإمبراطورية النمساوية الهنجارية، وتوفي في أسبانيا، وهو كاتب وصحفي ومفكر ولغوي وناقد اجتماعي ومصلح ومترجم ودبلوماسي ورحالة مسلم، وكان يهوديًّا سابقًا.

مقاومة السـيْلِ الجارف من التأثيرات الأجنبية المدمِّرة لدِيننـا ومجتمعنا، لقد ألقَيْنا جانبًا خيْرَ تعاليمَ ثقافيةٍ عرَفها العالَم، نحن نُناقِض معتقدَنا على حينَ كان هذا المعتقدُ لدى أجدادِنا دافعًا قويًّا، نحنُ اليومَ نَخجَل منه على حينَ كانوا هُم فَخورين به، ونحنُ بُخـلاء وأنانيون على حينَ كانوا يَفتحون أنفُسَـهم للعالمـين، ونحنُ فارغون على حينَ كانوا مُفعَمين.

هذا اللوْمُ والأسى معروفٌ جدًّا لكلِّ مفكّرٍ مسلم؛ لا فائدةَ من التظاهُر واستعمالِ حُجَج جدَلية لكي نُقنع أنفسَنا بأن خِزْيَنا لم يَبلُغِ النهاية؛ فإنه قد بلغَها بالفعل).

ويقول أيضًا: (الحقيقةُ أنّ حياة المسلم بعيدةٌ جدًّا من الإمكانيات المثالية المتاحةِ في تعاليم الإسلام، وكلُّ ما كان في الإسلام تطوُّرًا وحركةً تحوَّلَ عند المسلمين إلى توانٍ وجُمود، وكلُّ ما كان فيه من كرَمٍ واستعدادٍ بالتضحية بالنفس تحوَّلَ عند مسلمي هذا العصرِ إلى ضِيقِ الأُفُق، وعِشْقِ التَّرَف والحياةِ السهلة)[١١].

ويقول الشيخ صالح: (لقد سيطَرَ الفكرُ العلمانيّ التغريبيُّ في أغلبِ أرجاء العالم الإسـلاميّ، وطَوالَ قرْنٍ أو أكثرَ على مراكز القيادة في مُختلِفِ مجالاتِ الحياة، سواءٌ السياسـية، أو الاقتصـادية، أو التعليمية، أو الإعلامية، وفي هذه الحقبةِ أتَّت الجدليةُ المذهبية العربيّةُ (على سبيل المثال) دَورةً كاملة، فجرَّبَ المثقفون والسياسيون العرَبُ بشـكْلٍ انتقائيٍّ مجموعةً من النُّظُم والمذهبيات الأوروبية، وتخبَّطُوا في بحثِهم البائسِ عن الهُويّة بين مختلِف البدائل الغربية: التحرُّرية الأوروبية، والاشـتراكية، والثورية، والقوميـة المحليـة، والقوميـة الإقليمية، ولكـنْ دون نتيجة، وأسـفَرَ تسـلُّمُ العلمانيةِ التغريبيـة لمراكزِ القيادة عن فشَـلٍ مُطبِـق، فحقَّقت الدول العربيـةُ هزائمَ مُخزِية مع إسـرائيل، وانشَغلت بالحروب الأهلية أو الإقليمية العربية، هذا في المجال العسكريّ، أمـا في المجال الاجتماعيّ فلم يُمكنْهـا تحقيق الحدِّ الأدنى مـن العدالة الاجتماعية، وفي المجـال الاقتصـاديّ انتهت أغلبُ البلدان بعبْءٍ باهظٍ مـن الديون، وهدرٍ كامل

للموارد، وعجْزٍ في كثيرٍ من الأحوال عن توفيرِ الخبز من المصادر المحلية، أما بالنسبة للمجال السياسيّ فقد فشِلَتْ في إيجاد أساسٍ ثابتٍ لشرعية الحكم، أو معنى واضح لهُوية الدولة، وكان الفشَلُ المتكرِّرُ للنُّخَب في أن يُطبِّقوا أو يُنَمُّوا سياساتٍ مفيدةً عاملًا رئيسًا في القضاء على شرعيَّتِهم الهشّة، مما نَتج عنه في العقود الأخيرة خاصةً اعتمادُهم على القوةِ والإجراءاتِ الشُّرطية لاستدامة السيطرة، وبالتالي حتميةُ الصِّراع مع الشَّعب، ووقوعُه تحتَ القَهْر، والبَطْش، والاضطهاد، ومصادرة الحريات، وانتهاكِ حقوق الإنسان، وإرهابِ الحكْمِ البوليسيّ والمخابراتيّ)[٦].

هذا، وإذ وصلنا إلى نهاية المدخَل فإننا نَودُّ – قبل أن يشرع القارئ المتأمّل يقرأ صلب الكتاب الذي هو من كلام الشيخ رحمه الله كما سبق شرحُه في المقدمة – أن نشير إلى أنّ عناوينَ أقسامِ الرقِّ في هذا الكتاب وما تحتها من فروع منها ما يعبِّر عما وقع عليه الرقُّ، ومنها ما يعبِّر عما وقع به الرقُّ وكان وسيلةً إليه، وسيُذكر تفصيلُ ذلك في بدءِ كلِّ قسم، وإنما وقع الاقتصارُ على هذه العناوين وما تحتَ كلٍّ منها لأنّ ذلك هو الذي يَقتضيه شرطُ الكتاب.

obeikandl.com